فكرة المغرب العربي
من خلال الوثائق الدبلوماسية

د. عبد الهادي التازي

مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي
الرباط

اذا كان المغرب قد حافظ بجدية وفعالية على صلاته ببلاد المشرق عبر التاريخ، فان حفاظه على علاقاته بايالات المغرب الكبير ظل حقيقة قائمة ثابتة . ولم يكن مرد ذلك راجعا فقط الى الايمان بوحدة الواقع الجغرافي والسلالي واللغوي ، ولكن المغرب ما انفك يعتبر هذه الوحدة قدرا ومصيرا ، يجب أن تتضافر الجهود من أجل الاستجابة لها والاقتناع بضرورتها ، وهو حكم كان وليد تجارب قرون خوال بلغت فيها بلاد المغرب الكبير قمة عزها واوج عظمتها عندما كانت موحدة قبل أن يتناثر عقدها وتتبدد كلمتها .

سوف لا أتحدث هنا عن الآثار التي خلفتها تلك النوازع والطموحات التي استهدفت بناءنا واستقرارنا نحن أبناء الشمال الافريقي ، كما وسوف لا أستعرض هنا تلك الايادي الخفية التي كانت تحرك هذا الفريق على ذاك أو ذاك على هذا .. ولكني سأقصد الى ابراز بعض المحاولات التي بذلها المغرب من اجل تجسيد هذه الوحدة وجعلها حقيقة ملموسة ، ايمانا منه بأنها الطريق الذي لابديل له اذا كان القادة يهتمون حقيقة بقضايا الازدهار والتقدم في بلادهم ..

ولابد من الاشارة منذ البداية الى اننا نتحدث عن فترة محددة هي الفترة التي تبتدىء من أواسط القرن الحادي عشر الهجري/أواسط القرن السابععشر الميلادي، بل عن بعض الجوانب فقط من هذه الفترة ، واذا كنت صادقا مع وثائقي فانني أمام مجرد اشارات ومضات ولكنها اشارات وومضات دالة عميقة تعطي البرهان بالوسيلة الواضحة على أن بلاد المغرب كانت ما تزال تحسن الظن بفكرة المغرب العربي ..

ولكي أجعل نفسي معكم في الجو الذي نتحدث عنه ، اذكر **أولا :** أن ايالات الشمال الافريقي ، باستثناء المغرب الاقصى ، لم تلبث ان وجدت نفسها وجها لوجه أمام العثمانيين الذين اصبحوا بالفعل سادة الموقف لفترة تتجاوز ثلاثة قرون ونيف ..

ثانيا : اذكر أن العثمانيين ظهروا على المسرح الدولي واختفوا منه ، وهم يحملون معهم الشعور المرير بسبب انهم لم يتمكنوا من تحقيق كل ما كانوا يتوقون اليه في هذه المنطقــة . . !

ثالثا : انهم ، اي العثمانيين ، كونوا لهم خصوما شرسين في أوروبا كانوا ينظرون الى القسطنطينية نظرة حذر ويقظة . . وكانوا يبحثون ، بأي ثمن ، عن الحليف الـذي يساعدهم على تطويق الخطر العثماني .

رابعا : ومع أن جهاد العثمانيين كان يتجه نحو الممالك المسيحية جميعها . . فقد شاهدناهم ــ ومع ذلك ــ يعقدون اتفاقيات وأوفاقا مع بعض تلك الدول لمضايقة دول مسيحية أخــرى . . .

خامسا واخيرا : ان العثمانيين اتــراك ، أي انهم ليسوا عربا . . . والايالات المغربية تعتز بالعروبة بل وتعتبر نفسها عربية . . . ومن ثمت قرأنا عن الحملات التي كانت تشن بين الفينة والاخرى ضد النفوذ العثماني سواء منها الحمــلات المسلحــة أو الدبلوماسية ، وقد كان من ابرز أولئك الذين حملوا على الاتراك ، المواطن الامازيغي السفير أبو القاسم الزياني الذي لم يترك فرصة دون رفع عقيرته بالشكوى من تجني بعض الاتراك على الايالات التي يحكمونها ، وقد سخر ذات يوم عندما سمع أنهم (أي الاتراك) كانوا اذا استحسنوا من شخص ما عملا من الاعمال واكتشفوا أن القائـم بــه عربي ، قالوا : « ما الطفه لولا انه عربي » ! وهي حملة من الزياني لهــا دلالتها التــي **لا تخفى ، فقد نشأ الزياني في أحضان الاسرة المغربية التي عرفت أوج أيامها في عهد** المرابطين والموحدين ، عندما ازدهر قلم الانشاء العربي في دواوينهم وفي ممارساتهــم **الداخلية والخارجية ، لانهم وجدوا فيه ، اي الحرف العربي ، علاوة على قداســته ، وجدوا فيه الوسيلة الفعالة لالتفاف البلاد على كلمة واحدة ، سواء في الاندلس أو في** بــلاد المغــرب .

★ ★ ★

لقد قرأنا في الرسالة التي بعثها أول ملوك الدولة العلوية الى الجزائر بتاريــخ ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤ م ، قرأنا شجبه للمد التركي في تونس وتلمسان ، وانتقاده صنيــع السعديين قبله الذين لم يسعوا لتصفية تلك الامصار من وجود « الاعجام » على حــد تعبيــره . . !

كانت الرسالة من انشاء الشيخ التاجموعتي والقاضي رضوان ، ونصها محفوظ بالمكتبة المغربية . . .

هذا هو الوضع على ما رأينا ... ولا بد اننا نتصور بعدهذا حراجة موقفالمغرب على الصعيد العالمي ، سيما ونحن نعلم ان له التزامات سابقة مع المجموعة الدولية قبل أن توجد الدولة العثمانية .

ودعونا نستخلص الصورة لهذه الاقطار المغربية التي ظلت على ما أشرنا حريصة على تحقيق فكرة الوحدة في ظل عروبة شاملة .

ان القيام باحصاء دقيق لهدف السفارات الاجنبية التي تواردت على المغرب الاقصى في صدر دولة العلويين كان هو نفس الهدف الذي كان للبعثات الدبلوماسية التي وردت على المغرب أواخر العهد السعدي السابق :

كل الدول التي شعرت بمتابعة أو مطاردة من القسطنطينية العظمى قصدت المغرب أملا في أن تجد منه حليفا ضد تركيا ، سيما وقد كان المغرب من الجهات التي برهنت على صلابة عودها وقوة شكيمتها ازاء المد العثماني .

وجدنا في المغرب سفارات من دولة فارس التي تجاور تركيا ، ومن امبراطورية النمسا أيضا ، ووجدنا سفارات من هولندا ومن اسبانيا ... كل يريد أن يصور الخطر الذي يكمن في الوجود التركي ، وكل يريد ان يبرر ضربهم والالقاء بهم في البحر !!

وبودي لو كان لنا متسع من الوقت لكي نستعرض جميع التقارير التي رفعها السفراء المعتمدون في المغرب الى حكوماتهم ، سواء فيهم من كان يتمتع بصلات خاصة بالبلاط او من كانت له دالة على بعض رجال الدولة أو من كان منهم محترفا يباشر مهامه بموضوعية ... ولكن لابد أن أذكر مع هذا ان في هذه التقارير ما كان يهتم بنوع الاغراء الذي كان يقدم للمغرب حتى يقوم بحركته الفاصلة ضد الاتراك في الايالات المجاورة . واذكر – على سبيل المثال – من بين هذه الاغراءات تمكين المغرب من منطقة شاسعة تصل حدود طرابلس ... ولكن تلك التقارير كانت تضطر أصحابها الاجانب للتعقيب قائلين :

« اننا مهما بذلنا من عروض للمغرب فسيظل عطفه على الايالات العثمانية هو نفسه بالرغم مما يلحقه من مضايقات من الاتراك ، اننا عندما نتحدث الى المغرب بما يبيت له طرف الاتراك لا يتردد في القول بانه باستطاعته ان يقف امام كل تحرك يستهدف النيل منه ،ولكنه لا يستطيع أن يمضي حلفا ضد اخوانه في الدين » ...

في استطاعة كل واحد ان يقرا في تقارير من هذا النوع تلاحم الاسرة المغربية وعملها في باب المحافظة على المبادىء الاساسية للتعامل .

دعونا نتتبع قليلا سفارة السير انطوني شيرلي A. Sherly الى الديار المغربية أوائل القرن السابع عشر ... لقد كان الامر يتعلق ـ كما نعرف ـ بتحرك دولي ، في البداية من الشاه عباس الكبير في أعقاب ما كان يبلغه عن المراسلات المغربية التي كانت تهنىء الباب العالي بانتصاراته ضد الصفويين ... ذلك التحرك الذي لم يلبث أن تعزز أيضا بتكليف انطوني شيرلي من طرف رودولف الثاني امبراطور المانيا ، ثم بمهمة البابا كليمان الثاني لدى ملك المغرب ، واخيرا بالفكرة الجريئة التي كانت تراود فيليب الثاني ملك اسبانيا لكسر الحلف العثماني الفرنسي المبرم عام١٥٤٣ بين سليمان القانوني وبين فرانسوا الاول ... **نحن أمام رسالة حررت في مدينة مراكش** بتاريخ ١٦ دجنبر ١٦٠٥ من طرف كوي Coy الوزير الهولندي المعتمد في العاصمة المغربية .

ان مهمة شيرلي تتركز على اقناع المغرب بمناهضة الاتراك وطردهم عن الشمال الافريقي ... وقد استنتج السفير الهولندي من هذا **أن المطلب لابد أن يجاب بالرفض من طرف العاهل المغربي الذي اعتاد على ان لا يحالف احدا من المسيحيين ضد المسلمين .. اللهم اذا كان الامر يتعلق بدفاع عن كيانه ... ومع ذلك فقد كان يهدد ولا ينفذ !!**

وهذه الرسالة من الدبلوماسي الفرنسي الدكتور ارنول دوليسل A. de Lisle الذي كان طبيبا للاسرة الملكية قال : انه علم بواسطة الاميرة المغربية لالة صفية أخت **السلطان أبي فارس ، أن شيرلي** Sherly ورد من طرف اسبانيا لتأليب العاهل المغربي ضد تركيا على امتداد الساحل الافريقي ، من جبل طارق الى تونس ، وان ملك **اسبانيا سيعد العاهل المغربي بمساعدته على هذه الحركة على أن يتم الاتفاق بعدالنصر النهائي على توزيع الشمال الافريقي بين ملك المغرب وملك اسبانيا ، فيصبح الساحل** لملك اسبانيا والداخل كله لملك المغرب حتى تونس .

ويضيف التقرير الفرنسي بأن اسبانيا منذ ان ارتبط الاتراك باتفاقيتهم مع فرنسا أخذت تخطط لهذا المشروع وانها ، من أجل تحقيقه ، عدلت عن وعدها بمناصرة ملك البرتغال في وقعة وادي المخازن ، وان هذا المخطط لم يمت بوفاة السلطان المولى عبد الملك وجلوس أخيه احمد المنصور على العرش بل انها ، أي اسبانيا ، ما انفكت تستغل حوادث الحدود الشرقية مع الاتراك في الجزائر لتجعل العاهل المغربي

اكثـر اقتناعا بقبول الحلف المذكور ، بيد أن ملك المغرب (يقول التقرير الفرنسـي) ظل يتملص من اتفاق من هـذا النـوع ... ان المغرب غيـر متحمس للتحالف مـع المسيحيين ضد الاتراك ولو انه بالمرصاد لهؤلاء عندما تحدثهـم نفسهم بالتعدي علـى التراب المغربي ، وقد كان مما يشجع اسبانيا (يقول التقرير الفرنسي) على مفاتحة المغرب حول هذا المخطط اقناعه بالكره الذي يكنه ايضا سهل الجزائر وتونس للاتراك وميل السكان في المنطقة المذكورة لتكوين وحدة ضد الاتراك الذين ظلوا يعتبرون بعيدين عن المنطقة .

ويضيف التقرير الفرنسي ان نجاح مثـل هـذاالمشروع من شأنه أن يلحق ضربة قاسية بمصالح فرنسا بقدر ما هو في صالح اسبانيا سواء أيام الحرب وأيـام السلام ، ويختم التقرير بذكر انطباعات المبعوث الفرنسي على هـذا النحو : « انـه ، حسـب التجربة التي يتوفر عليها طيلة المدة التي قضاها بالمغرب لا يعتقد أن المسؤولين المغاربة يخدعون أبدا بعروض اسبانيا التي تظل العدو المشترك لكلا الفريقين » .

وقد ورد هذا التقرير في مجموعة (دوكاستري) المعروفة تحت عنوان (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب) (القسم السعدي الفرنسـي) السلسلة الاولى ، المجلـد الثاني ص ٣٣٠ ، وكذلك في (القسم السعدي الهولندي) السلسلة الاولـى ، المجلـد الاول ، ص ١٠٨ ، التعليق رقم ٢ ...

وان المرء ليشعر بالغبطة العارمة وهو يسمع في تلك الايـام عن الصلات المنتظمة التي كانت للجزائر مثلا بالمغرب ...

ولننتقل بعد هذا الى نوع اخر من الوثائق الدبلوماسية التي يزخر بها الارشيف الاوروبي ، وبخاصة الفرنسي والاسباني والتركي ...

لقد كانت تركيا على ما نعرف مرتبطة مع فرنسا باتفاقيات وأحلاف كان اقدمها ما عقد بين السلطان سليمان القانوني وفرانسوا الاول سنة ١٥٤٣ ...

الاتفاقية كما اشرت تهدف ضرب مصالحاسبانيا ... لا لهدف الا انها تتخالفمع فرنسا حول قضايا تتصل بوراثة العرش ...

ولا بد ان تسير الولايات التابعة للباب العالي مع خط أهداف تلكالاتفاقيات .. وحيث ان المغرب ظل الصخرة التي تحطمت عليها مطامع الاتراك في الامتداد ، فقد كان على فرنسا ان تحاول بشتى الوسائل الدبلوماسية الحصول من المغرب على اتفـاق يشبه ما عقدته مع الباب العالي في شأن مضايقة اسبانيا ...

وهنا الفت النظر مرة اخرى الى ملف زاخر حافل بما كان يجري على ساحة المغرب الكبير من اصطدامات واحتكاكات ومواجهات لم تكن في الاصل من صنع محلي داخلي ، بقدر ما كانت من صنع اجنبي خارجي ، اي أن هناك ادمغة بعيدة عن المنطقة من حيث المسافة ومن حيث المعتقد ، ومن حيث الهدف ، تلك الادمغة هي التي تدبر ، وعلى الاخوة ان يقاتلوا لتنفيذ ما دبر . !!

نحن نعيش أيام المفاوضات الجارية بين السلطان المولى اسماعيل وبين الملك لويس الرابع عشر ، من اجل الوصول الى اتفاق ... لكن المغرب قبل أن يقبل السير قدما في التوقيع على معاهدة من هذا القبيل، كان يريد أن يعرف فوائد الاتفاق وعوائده منه قبل كل شيء ، ان مضايقة اسبانيا لاجل المضايقة فقط أمر لايهم ، سيما وقضية وراثة العرش لاتتصل به ولا بتقاليده ، ولكنه مع ذلك يقبل أن يجلس للمناقشة على أساس ... وقد كان السؤال الذي وضعه المغرب على مفاوضيه الفرنسيين هو : ما اذا كانت فرنسا جاهزة لمساعدة المغرب على استرجاع مدينة سبتة ؟ لقد كان السلطان المولى اسماعيل قد حرر المعمورة وطنجة والعرائش واصيلا ... ولكنه أمام سبتة التي تحتاج الى عون وأي عون !!

ان سبتة تشكل كما هو معلوم شبه جزيرة ... ولذلك فان السيطرة عليها انما تتم لمن يتوفر على أسطول قوي ، ومن ثم كان القائد داود بن عائشة ، قائد الجيش المرابطي قد اشترط على الذين استنجدوا بالمغرب من الاندلس ان يوافوه بأساطيل ابن عباد لتحيط بسبتة قبل ان ينزلها هو من البر ...

ومن ثم أيضا وجدنا السلطان المولى اسماعيل يستخدم في فترة من الزمن ورقته الدبلوماسية مع انجلترا عندما احتلت جبل طارق ، على نحو ما سيفعله السلطان المولى سليمان بمناسبة ظهور نابليون على الساحة الدولية ...

لقد ظهر أن الملك لويس الرابع عشر كان يريد الحصول على توقيع اتفاقية بدون مقابل ،! ومن هنا شاهدنا تشنجا في العلاقات بين البلدين : فرنسا والمغرب ... لم يلبث ان استحال الى توتر .. ومن العادي أن يقع بين الدول ذلك التشنج او التوتر عندما لا تصل الى اتفاق فيما بينها ... ولكن الشيء الغريب ان يتحول القلق الدبلوماسي الى المواجهة المسلحة ، بل ان الاغرب من كل ذلك أن تكون هذه المواجهة على حدودنا ومع اشقائنا في الجزائر ، وان الاكثر غرابة من كل هذا ان نجد اثارا تدل على أن الحلف التركي الفرنسي كان يقوم بواجبه بكل نشاط في الناحية الشرقية من المغرب !

ومن ثم ففي استطاعتنا ان نستقصي حوادث الحدود بين المغرب والجزائر ونضبط تواريخها وايامها ، ونتنقل في الوقت ذاته الى ايام التشنج والتوتر بين المغرب وفرنسا لنشهد الظاهرة الغريبة والمصادفة التي لا تخطىء عن الارتباط بين المساومات هنا والتشنجات هناك !!

ولا بد ان نشير بصفة خاصة لصورة من تلك المواجهات المؤسفة التي عرفتها سنة ١١٠٣ هـ/١٦٩٢ م قبل ثلاثة قرون ، حيث نجد خطابات مكتوبة موجهة من الاتراك الى لويس الرابع عشر تشكو من اتفاق مزعوم بين المغرب وتونس لتصفية الوجود التركي بافريقيا !! ونجد في الوقت ذاته خطابات تهديد للمملكة المغربية من الباب العالي الذي يتساءل عن السبب في عدم تحرير بقية الثغور المغربية والانشغال بوجود الاتراك في افريقيا !! الامر الذي لم يتردد السلطان المولى اسماعيل في الجواب عنه مخاطبا العثمانيين بما مفاده : وماذا منعكم انتم من تحرير وهران الى الان مع انها في متناول اليد ، وعوض تخليصها تسمحون لانفسكم باذاية الاعراب هناك ... ومرة اخرى نجد الاتراك يرفعون الشكوى للباب العالي بأمر « حلف » جديد موجه ضد وجودهم بافريقيا ، وهذا الحلف المزعوم هذه المرة يضم علاوة على المغرب كلا من طرابلس وتونس ... وقد جاء هذا الوهم من كون المغرب كان يتوسط في كثير من الاحيان بين الايالتين المتجاورتين ، تونس وطرابلس ، لاصلاح ذات البين فيما بينهما !

قد نتساءل عن مدى الصلة بين المغرب وبين تونس وطرابلس حتى يقوم المغرب بمعالجة مشاكلهما ... وهو سؤال موضوع حقيقة ، وفيه نجد بدورنا جوابنا عن الشعور الذي يخامر المغرب الاقصى بالاحتفاظ بالمغرب الكبير عربي القلب واللسان ... وانه ـ اي المغرب ـ بالرغم من تقديره للعثمانيين كمقاتلين مناضلين ، الا انه لم يخف استنكاره لشعورهم المعادي في بعض الاحيان على ما يقال ...

وان من المهم ان نشير لرسالة اسماعيلية الى لويس الرابع عشر بتاريخ ١٤ جمادى الاولى ١١٢٢ هـ ٢٢ يوليه ١٧٠٩ م ، يعرض المغرب فيها على فرنسا المساعدة العسكرية له ولحليفته تركيا ضد النمسا ... وقد جاء في هذه الرسالة قول العاهل المغربي : « انه بالرغم من نظرة تركيا للعرب ... وخوفها من وحدة كلمتهم .. فاننا على اتم الاستعداد للوقوف الى جانب فرنسا مادامت تعمل يدا واحدة مع تركيا ... » وقد جاء في الرسالة على الخصوص : « ان الاتراك يحنقون على العرب حنقا زائدا وذلك لكثرة عدد العرب ... انهم لو اجتمعوا وغادروا الصحراء لامكنهم ان يستنزفوا اكبر نهر في الدنيا ، علاوة على انهم يخافون اشد الخوف من أن يقوم العرب استقبالا بدور يأتي على ممالك تركيا وهو الشعور الذي يفيده عدم الاعتراف للعرب اطلاقا بما

يقدمونه للعثمانيين من مساعدات كان عليهم أن يعترفوا بها ويشيدوا بها ولا ينسوها.. ومع ذلك تقول الرسالة الاسماعيلية الى لويس الرابع عشر ـ فاننا نعلن عن استعدادنا لتقديم المساعدة والعون اليكم لطرد النمسا من اسبانيا وذلك بسبب واحد : انكم توادون الاتراك وتحبونهم ... **وان حبنا نحن للاتراك نابع من كونهم حراس الحرمين الشريفين وبيت المقدس ...»**

ولا ينسينا اهتمام المغرب باخوته الاتراك،التعرض للمشكل القانوني الذي وضعه الفصل العاشر من المعاهدة المغربية النمساوية ... ان هذا الفصل ينص على انه اذا وقعت الحرب بين الملة النصرانية وبين الملة الاسلامية فان العلاقات بين الطرفين المغربي والنمساوي لا تتأثر بهذه الحرب بل تبقى المحبة والمودة بين الجانبين . اذا ما قارنا هذا الفصل بما ورد في نص الشعار الذي رفعه المغرب آنذاك : **« نسالم من يسالم تركيا ونحارب من يحاربها »** واذا قارناه بما ورد في خطاب العاهل المغربي لملك فرنسا ، فسنجد أن هناك تناقضا بين هاته المواد ...

والواقع ان المغرب ظل يتجاهل ، بكل بساطة ، سائر البنود التي تحد من اتصالاته باخوته في الدين مهما كانت النتائج ... ومن الامانة للتاريخ ان نحضر حوارا بين العاهل المغربي واحد وزرائه ممن كانوا لا يرون جدوى في اغداق المساعدات على العثمانيين ، لقد سأل العاهل وزيره عما يقوله الناس حول مساعدته المادية للاتراك ، فأجابه الوزير بصراحة زائدة : انهم يقولون : لو صرفت هذه الاموال في **الجهاد بالمغرب لكان اولى ...** ولكن العاهل المغربي اقنع وزيره بأن الامر يتعلق بالتخفيف عن الاخوة من الضربات الموجعة التي تتوالى عليهم من أعداء الاسلام ، على حد تعبيره .

وحتى نعرف ان وقوف المغرب الى جانب فرنسا لم يكن موقفا عشوائيا .. يجب أن نرحل الى الارشيف الفرنسي لنجد من جهة اخرى رسالة احتجاج قوية اللهجة تصدر عن المغرب الى فرنسا بصدد الاعتداء الذي **وقع على تونس من طرف الجيش الفرنسي ...**

ويتعلق الامر بالقلق الشديد الذي عم المغرب وهو يسمع عن قصف المدفعية الفرنسية لسوسة ... بعد أن امتنع الباشا علي باي عن ارضاء المطالب الفرنسية الملحة . وهكذا نجد رسالة **تحمل تاريخ ٦ ذي القعدة** ١١٨٤ هـ/٣ مارس ١٧٧٠ م موجهة من العاهل الى لويس الخامس عشر ... وقعها عنه الوزيران المعروفان : احمد المهدي الغزال ، وعبد الهادي السلاوي ...

لقد أعطى السلطان سيدي محمد بن عبد الله مهلة أربعة شهور لكي تعيد فرنسا النظر في سياستها ازاء تونس والا فانه مضطر لاشهار الحرب عليها ..! الامر الذي جعل فرنسا تجيب عن الاحتجاج معتذرة وموضحة الاسباب التي دفعت بها لقصف المدينة . وتم الاتصال عندئذ بالقنصل الفرنسي بالمغرب الذي عبر عن الرغبة في ان تعود المياه الى مجاريها .

وان مما يدخل في اطار الثقة المتبادلة بين أطراف المغرب : التزكية التونسية التي اعتمدها المغرب فيما يتعلق بتبرئة ساحة جمهورية (دوبروفنيك) مما ألصق بها من عبث سفنها التجارية بالحجاج المغاربة وانزالهم بمالطة عوض تطوان وسلا ! تلك الشهادة التي أنشأها العدل التونسي السيد أحمد بوستة ، وزكاها شيخ المغاربة بتونس الحاج عبد السلام مقنين ... ونحن نعلم أن هذه الحادثة هي التي سببت ضرب الحصار من طرف المغرب في البحر المتوسط على سفن سائر الدول الاوربية ما دامت لم تساعد على كشف هوية السفينة المعتدية ... فعلا تبين أمر المغاربة الذين عادوا يحكون عن أيامهم التعسة في « مالطة لا فراش و لاغطا » ... مصداق المثل المغربي المشهور الذي يقول : الله يديه لمالطة لا فراش ولا غطا !

فماذا عن الاحتلال الاسباني الذي تجدد لوهران ؟ لقد كتب السلطان محمود الاول الى العاهل المغربي يطلب اليه الاستمرار في مساعدته للعثمانيين من أجل تخليص الثغر ... وكانت فرصة اغتنمها السلطان سيدي محمد بن عبد الله لعقد اتفاق سري يهدف الى العمل يدا واحدة لتطهير السواحل المغربية من الاحتلال الاسباني « من وهران الى سبتة » على ما تذكره الرواية الاوربية .

وهنا نفتح ملفا من الملفات الحزينة التي تكشف عن جوانب اخرى من المعوقات الخارجية التي كانت تقف دون الخطوات نحو الوحدة بعد أن سمعنا عن المعلومات السابقة ...

ويتعلق الامر بالتناور الذي كانت تقوم به اسبانيا أيضا للتأثير على بعض الدايات ... ان اسبانيا ـ كما قلنا ـ كانت تبسط نفوذها على بعض الثغور الجزائرية على نحو ماكان عليه الامر بالنسبة للمغرب ، وفي كل مرة كانت اسبانيا تشعر بعزم صادق من احدى الجهتين لمد يده ليد الجهة الاخرى ، تعمد الى هذه الجهة أو تلك لتمني وتغري ، وهنا كنا نشهد الكوارث ... ولابد من العودة الى الوثائق الاسبانية لنقرأ مئات الدلائل على ضروب الكيد والغدر التي كانت توجه في الخفاء ضد التقارب بين أقطار المغرب ولكسر كل تضامن يهدف لتصفية الاحتلال الاسباني على سواحل بلاد المغرب ...

هل نحن بحاجة للتذكير بما حصل والعاهل المغربي يحاصر العرائش ..ويجهز جيشه نحو شمال المغرب ... كلنا يعلم ان هذا الوقت بالذات هو الذي اختير للمناوشات التركية على الحدود الشرقية ..! بل ان كلنا يعلم ان الامر لم يكن مجرد (صدفة) ولكنه كان وليد (وصفة) استعمارية ! وبهذه المناسبة أرجو أن تسمحوا لي أن ألفت النظر الى أن المؤرخين الذين يكتفون بالحديث عن « اصطدام هذا الجانب بذاك أو تحرش ذاك بهذا » أو يتحدثون عن فشل هذه التجربة بوجود فلان أو فلتان كانوا ، في نظرنا ، مؤرخين قاصرين سطحيين ... ان عليهم أن يبحثوا عن أسباب الفشل ليس فقط فيما تتناقله مؤلفاتنا المتداولة العادية ، ولكن فيما يوجد على الاقل بأرشيفات استانبول وفرنسا واسبانيا ... ومن المؤسف حقا ان نظل في هذه الحلقة المفرغة بالرغم من ظهور المصادر الدفينة والوثائق المعاصرة ...

وما بالنا نروح بعيدا ... دون أن نقف قليلا مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله اثناء حصاره لمدينة مليلية في أعقاب الاتفاق الذي تم بينه وبين محمد باشا .

فلقد تحدثت المصادر المغربية عن فك الحصار بصفة مفاجئة ... وأخذت تتساءل عن الاسباب التي كان علينا أن نجدها في المصادر الاسبانية وفي المصادر الانجليزية ... بل ــ وهذا شيء مطرف ــ أن نكتشفها في كتب النوازل الفقهية الذي قد تعتبر بعيدة عن المصادر التاريخية ..

لقد كان الامر يتعلق بخذلان من طرف الداي، الذي لم يكتف بالتراجع فيما ابرمت يداه سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٤ م ولكنه انزل جام غضبه على الجزائريين الذين تطوعوا للجهاد مع العاهل المغربي من عرب المغرب الاوسط ، فاستباح دماءهم وروع أولياءهم وطوفهم في الازقة على حد تعبير الاستفتاء الذي هز رجال الفقه والدين بالمغرب والمشرق من الذين رأوا في النازلة اهانة جارحة ، ولابد أن ترجعوا الى نصوص هذه الفتاوى التي تظل وثائق تاريخية الى جانب انها مراجع هامة على مستوى الفقه العالي ، وهكذا فان (معاداة) الاتراك لكل انواع التقارب العربي عملت مع طول الايام على تغذية الشعور بأن هناك فريقين من الناس فريق الاعراب وفريق الاتراك ، وان هذا الفريق غير ذلك الفريق ..! وكلنا على علم مما ورد في تقارير السفراء المغاربة واكدته المصادر الاسبانية ، من ان تركيا كانت تميز بين أسراها المحتجزين بالدول الاوروبية ، فاذا كانوا من أصل تركي افتدتهم ، واذا كانوا من أصل عربي امتنعت من ذلك ... وهذا ما قرانا فيمذكرات السفير ابن عثمان سواء عندما كان في قرطاجة أو كان في

نابولي ، حيث افتدى برسم المغرب ، سواء لما كان هنا أو هناك ، مئات الاسرى من اصل عربي(١) ...!!

وهكذا يستطيع المؤرخ المنصف ان يدرك انه اذا ما كانت بعض ثغورنا قد تأخر تحريرها أو تعطل أو تعثر ، فان جانبا مهما من التبعة تقع على كاهل « الذين » يهمهم ان يصيخوا باسماعهم الى مخططات « بعيدة عن الساحة المغربية » ، وان الذين يتجاهلون الجوانب المضيئة في تاريخ **التعاون بين الايالات** كانوا هم الاخرين يتحركون من منطلقات غير موثقة وربما مفرضة ، وكيف نفسر أطباق المصادر التركية ذاتها ، وعلى رأسها المؤرخ التركي والنائب البرلماني عزيز سميح في كتابه (كتاب الاتراك في شمال افريقيا) الذي فيه ، في المجلد الثاني منه (ص ٤٥) بالحرف الواحد : **« لقد كان الغرض من حصار السلطان المولى يزيد لسبتة هو مضايقة اسبانيا حتى تخضع لضغط الجزائر** ... وكيف نفسر تهافت عرب الجزائر على ساحات القتال الى جانب اخوانهم المغاربة لتخليص البلاد من نير الاحتلال الصليبي .

ثم كيف نفسر التصريح الملكي الذي وزعه الدبلوماسي المغربي السيد محمد القادري على أعضاء السلك الاجنبي بتاريخ ٥ رمضان ١١٩٢ هـ ـ ٧ شتنبر ١٧٧٨م ، والذي يعطي ، حسب الفصل الخامس منه ، الحماية الكافية للمراكب الجهادية الجزائرية التي ترسو بالساحل المغربي ، والذي يزودها بكل ما يدفع عنها غيلة الطاردين والمتبعين من الاسبان أو من غيرهم ، انها وثائق تحمل أسماء معروفة .. وتواريخ محددة ...

وأخيرا كيف نفسر الانذار الذي وجهه المغرب الى الدول الاوروبية التي كانت تهدد الجزائر وتعتزم اقتحام ترابها أواخر ١١٩٩ هـ /١٧٨٥ م(٢) « فالذي قبل منهم كلامنا ورجع ولم يدخل الجزائر وغيرها من مراسيهم فنحن معهم على الصلح والمهادنة كما كنا ، والذي اراد منهم دخول الجزائر ومراسيهم ولم يتمثل ما أمرناه به فنحن معه على المحاربة » على حد تعبير التصريح الملكي الذي يحتفظ به ارشيف فيينا ...

وقد كان التقارب بين المغرب والجزائر محل تتبع واهتمام زائدين من الباب العالي لانه كان يرى في تلك الوحدة نذيرا على وجوده بالشمال الافريقي ، ولذلك

---

١ ـ الاكسير في فكاك الاسير ، منشورات معهد البحث العلمي ١٩٦٥ ـ البدر السافر ، (مخطوط) بالمكتبة الملكية تحت رقم ١٣١٥ .

٢ ـ يتأكد هذا في رسالة بعث بها العاهل الى القنصل الاسباني منويل سلمون بتاريخ ٤ ذي القعدة ١١٩٩ ـ ٨ شتنبر ١٧٨٥ (وثائق مدريد) المحفوظة في تطوان .

1199

كافة القنصوات الذين بثغر طنجة السلام على من اتبع الهدى اما
بعد نامركم ان تعلموا اجناسكم بان اهل الجزاير ان يعملوا مع جنس
الاصبنيول الصلح الذي امرهم به السلطان العثماني نصره الله صلحا تاما كي
امرهم فعلي بركات الله وان لم يفعلوا ما امرهم به فها انا نوجه عشرة
براكيط ان شا الله من براكيطنا الجهادية لباب مرسة الجزاير
و نمنع جميع اجناس النصاري من الدخول للجزاير وكذلك الاصبنيول
يرجعون عشر من براكيطهم اهم يتكلمون مع اهل الجزاير و انا
كلامي مع اجناس النصاري الذين يريدون الدخول للجزاير وغيرها
من مراسي الجزاير فالذي قبل منهم كلامنا و رجع ولم يدخل الجزاير
وغيرها من مراسيهم فنحن معهم على الصلح والمهادنة كما كنا والذي اراد
منهم دخول الجزاير و مراسيهم ولم يمتثل ما امرناه به فنحن معه على
المحاربة

1199

نسخة من الانذار الذي توجّه به الملك محمد الثالث
الى السلك الدبلوماسي بطنجة بتاريخ 2 ذي القعدة 1199

فانه بالرغم مما يصل الباب من المغرب من شكاوى متتابعة بسوء تصرف الاتراك هناك، كان يتغاضى عن معالجة الاحوال خوفا من تحقيق الهدف ... بل انه اي (الباب العالي) كان يشجع الوشايات التي تقصد لضرب كل تلاحم بين الايالة نفسها والايالات العربية المجاورة سيما وهو يسمع عن الوفود المتوالية الى المغرب .

واظن انه من المفيد لتصوير الموضوع ان نستعرض هنا تقريرا سريا رفعه السفير التركي اسماعيل افندي سنة ١١٩٩/١٧٨٥ بعد مهمة له لدى الملك محمد الثالث ، حيث ورد يشكر العاهل على المساعدة القيمة التي قدمها للحكومة التركية في اعقاب صلحها مع اسبانيا وطلبها من واليها بالجزائر أن « يتفاهم مع اسبانيا » ، لقد جاء في تقرير السفير العثماني لحكومته حسبما وقفت عليه في ارشيف رئاسة الحكومة في اسطانبول ، هذه الافكار التي نلخصها فيما يلي :

لقد حضرت مع العاهل المغربي صلاة الجمعة بمسجد السنة ، حيث دعى في الخطبة للسلطان عبد الحميد . وتعليقا على موضوع خطبة الجمعة ذكر الخطيب بما يتم من ظلم من قبل الاتراك ، وبعد حوار بين العاهل والسفير خلع عليه الملك رداءه .. تقرير طويل يخلص فيه الى القول : بأن الذي يظهر لي انه ـ اي ملك المغرب ـ يكن للدولة العلية الحب وانه مستعد لتقديم جميع ما في خزائنه من مال للقضية الاسلامية .. الا اني فهمت من المولى محمد انه عاتب على الباب العالي ضعفه امام الظلم الذي يقع على العرب والفقراء والعلماء والاشراف في الجزائر مما قد يؤدي الى انهيار مملكة السلطان عبد الحميد ، على حد التقرير الدبلوماسي .. وانه على السلطان أن يسمح بتنصيب باشوات من أصل جزائري يختارهم الشعب الجزائري دون تدخل العسكر الاجنبي على نحو ما في تونس وطرابلس .. وفي اثناء اقامتي ـ يقول السفير اسماعيل افندي ـ ورد وفد على المغرب من اعراب الجزائر يحكون ما يلقونه من عنت ومظالم يمجها العقل ويرفضها الشرع ..

واذا ما عرفنا ما يتمتع به سيدي محمد من سمعة لدى اشراف الحجاز وحكام مصر واليمن ، ادركنا مدى ما ينتظر السلطان عبد الحميد من ضرورة الحذر واليقظة .. »

ويظهر ان التقرير السري ترك اثره في الباب العالي الذي لم يعد له منذ الان حساب ضد اسبانيا حيث وجدناه يبرم معها معاهدة صلح في اعقاب انتصارها ضد الاسطول الانجليزي في ميورقة ، كما وجدناه يوجه بأوامره الى واليه بالجزائر محمد عثمان باشا ، لكي يسلك نفس الطريق مع الاسبان تمهيدا لانفراج تستفيد منه

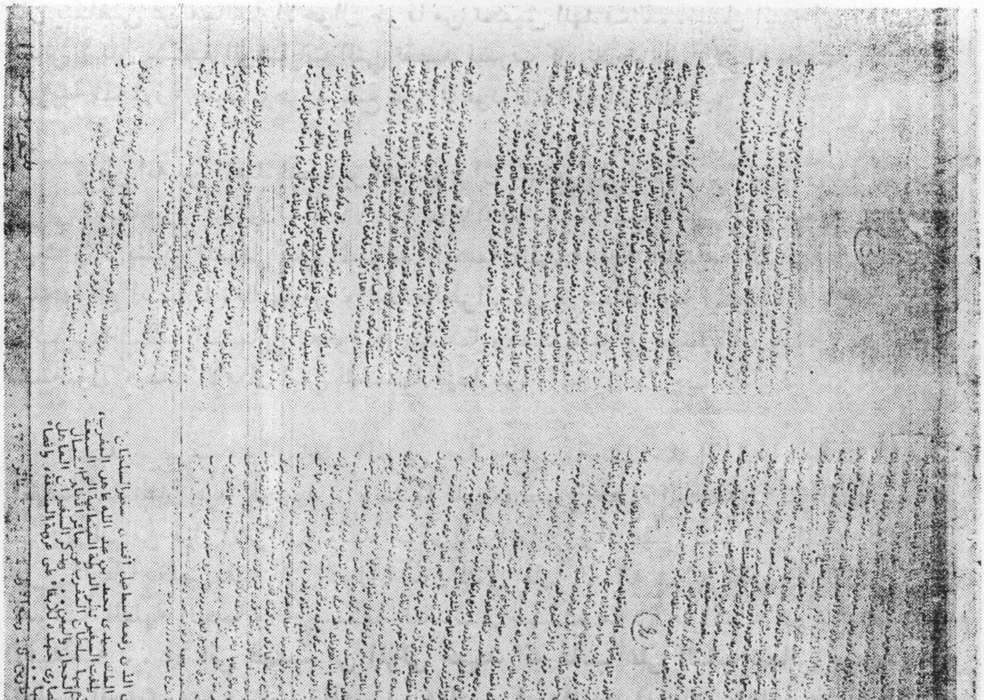

اسطانبول في أعقاب المد الروسي الذي اخذ (حسب المادة الثانية عشر من اتفاقية مع السلطان عبد الحميد) يتجه نحو الولايات العثمانية في الحوض المتوسط الامر الذي كانت تركيا تعض عليه بنان الندم . .

وهكذا أيضا فالى جانب التقارير الاوربية التي تحدثت عن « خميرة » الوحدة ، وجدنا التقارير التركية بدورها لم تخف شعورها بما يسود من آراء ازاء هذه الوحدة . . ولنترك اوربا وآسيا لننتقل الى امريكا الشمالية ، الى الولايات المتحدة بالذت التي نراها ، وقد تأزم الوضع فيما بينها وبين ايالة طرابلس وايالة تونس، تقدم ـ بعد مصادقة الكونغرس على الاتفاقية المغربية الامريكية ـ تقدم على ارسال خطاب باسم الرئيس جورج واشنطن الى الملك محمد الثالث بتاريخ ٢٣ يونيه ١٧٨٧ تطلب اليه ان يقوم بمساعيه الحميدة لدى الايالتين من أجل بناء علاقات افضل بين امريكا وتونس وطرابلس . ان هذه الرسالة بما تبعها من اجوبة ملكية مغربية تعبر عن كثير من الحقائق التاريخية . . . فهي من ناحية تعكس الروح الطيبة السائدة بين بقية أقطار المغرب العربي كما تدل على ان فكرة الوحدة في طريقها الى التحقيق ، وهي الحقيقة التي تؤكدها المبادرة الامريكية التي بعثت لايالة الجزائر بالمستر جوهن لامب John Lamb وان من أبرز ما يجسد هذه الحقيقة تعاون العاهل المغربي مع حاكم طرابلس وتونس على الحد من تحرك الاسطول الروسي في المنطقة وخاصة منعه من الاقتراب من بوغاز جبل طارق في محاولة للتخفيف عن الباب العالي من ضربات الروس . . . وهذا يكون ايضا عنصرا واضحا من باب بناء المغرب العربي .

بل هناك بادرة تدل في مضمونها على الحاجة التي اخذت تشعر بها الايالة الجزائرية ، ويتعلق الامر بطلب تقدم به داي الجزائر الى السلطان المولى سليمان يطلب اليه أن يبعث بوفادة مغربية لاصلاح ذات البين بين داي الجزائر وبين طائفة دينية ، لقد كان النزاع في الواقع بين عرب تلمسان وبين تركيا على نحو ما نراه اليوم في قبرص بين الاتراك واليونان . . !

وقد ظهرت في الافق سحابة خطيرة في سماء العلاقات المغربية الامريكية كادت ان تؤدي ـ ان لم تكن قد ادت فعلا ـ الى اشهار الحرب من طرف المغرب على الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٢١٨ / ١٨٠٣ ، وقد يظهر انه من باب المبالغة والتهويل القول بان السلطان المولى سليمان يعلن الحرب على الرئيس الامريكي طوماس جيفرسن !

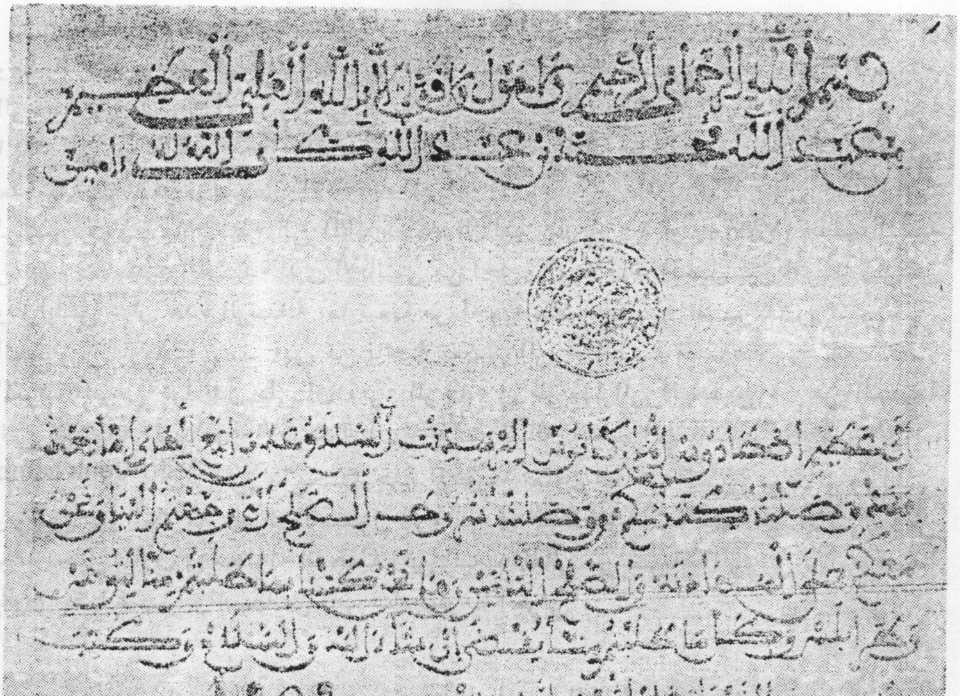

1 بعث جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الامريكية بمبعوث طوماس باركلي الى الملك محمد الثالث يطلب اليه ان يتدخل بمساعيه الحميدة بين طرابلس وامريكا ، فعندما جواب العاهل المغربي على رسالة الرئيس الامريكي ، وهو بتاريخ 15 ذي القعدة 1202 هـ (17 غشت 1788 م) يعده بالتدخل لصالح السلام ...

— 64 —

ولكن الواقع هو ذاك على ما نقراه في المصادر المغربية والليبية والوثائق الامريكية على السواء ... وليس المهم هذا ولكن المهم ان نعرف عن أسباب هذا التوتر الذي لم يكن غير استجابة المغرب لطلب الوفد الليبي الذي ورد يطلب امداد طرابلس بما تحتاج اليه من مواد ، ولم يكن غير مساعدة طرابلس وهي تحاصر السفينة الامريكية فيلادلفيا ! اعتبر الجانب الامريكي ذلك خرقا للبند الثاني من الاتفاقية الثنائية وهو ينص على عدم تقديم المساعدة من جانب احد الطرفين لعدو الطرف الآخر ... ولم تتسور امريكا كيف يستطيع مركب مغربي يحمل اسم (مبروكة) بقيادة الرائس ابراهيم لوباريس ان يحجز مركبا امريكيا يحمل اسم Celia

وكما وجدنا المغرب لا يعجز عن تقديم التفسير عندما احتجت النمسا بالامس على مساعدة فرنسا حليفة تركيا ، كذلك وجدناه اليوم يعتمد على تفسير الفصل السادس من المعاهدة المغربية الامريكية بأن مفهوم « المور Maures » بالنسبة الى المغرب شامل لجميع الاسرة الاسلامية سواء كانت في المغرب ام في المشرق !!

وهكذا وبعد مفاوضات صعبة بين وزير الخارجية المغربية محمد السلاوي وبين المبعوث الامريكي سيمبسون توصل الطرفان الى تسوية بالافراج عن السفن المحتجزة لكل من المغرب وامريكا .

ومما نسجله على هامش استيلاء الاسطول المغربي على قطعة من الاسطول الامريكي ... ان وفدا من تونس برئاسة الشيخ ابراهيم الرياحي كان يوجد في حضرة العاهل أثناء وصول البشريات بحجز المركب الامريكي فأنشاه قصيدة ميمية طويلة يهنىء العاهل فيها ، وكان مما ورد فيها قوله :

دلائل فضل الله فينا تترجم	وان غفلت عنها طوائف نوم
ومن اكرم النعما ولاية من له	علينا وفينا حكمة وتحكم !

وهكذا وجدنا ان هذه الفترة عرفت يقظة جماعية ... في سائر الايالات بضرورة التئام الصف وكان مما عكس هذا الشعور ارسال وفادة من المغرب الى الجزائر كانت برئاسة الامير مولاي ابراهيم لتقديم المواساة في اعقاب مداهمة الاسطول الانجليزي للساحل الجزائري ...

وبالرغم من الامر العثماني الذي صدر لولاية الجزائر في تاريخ ١٥ ربيع الاول ١٢٤٥/١٤ شتنبر ١٨٢٩ بعدم مساندة المغرب الواقف ضد بحرية النمسا ، بحجة

ان هذه الاخيرة في حالة سلم مع تركيا ، فان المغرب مع ذلك اعلن الحداد الشامل عندما تمكنت فرنسا من انتزاع الحكم من الاتراك في الجزائر ، الامر الذي اعقبته الكوارث والاهوال بالنسبة للمغرب الذي اصيب في اسطوله: وكان اسطورة البحار ... المغرب الذي تعرض لحروب مع فرنسا قصمت ظهره فاستهدفت لتألب القوى الاستعمارية عليه من كل حدب وصوب على ما نعلم .

★ ★ ★

تلكم ومضات عن تجارب حول فكرة وحدة المغرب الكبير من خلال الوثائق الدبلوماسية وعن معوقاتها الحقيقية التي كانت كما راينا تحمل هويات اجنبية عن الساحة المغربية ، فمرة اسبانية ومرة ثانية فرنسية ومرة ثالثة جهة اخرى ... كانت جميعها تستهدف كما راينا أن تبقى بلاد المغرب مفتتة مجزأة منهوكة القوى ، في حين كانت فيه هذه الايالات تسعى جاهدة للتواصل فيما بينها بشتى الطرق والوسائل على ما رأينا سلفا من تنقل الوفود عبر الشمال الافريقي لاحياء آصرة الود والاخوة فيما بينها ...

وساقف عند هذا الحد تاركا الفرصة لاجترار تلك الاحداث ربما كان في ذلك ما يساعدنا على أن نكون اكثر وعيا واكثر استفادة من التاريخ !

نقد مرت فكرة المغرب الكبير بفترات تعثر لم تكن الايالات مسؤولة عنها بحال . ومن حسن الحظ أن نسجل أن نسبة فترات اللقاء كانت أوفر واكثر ... وان شعور المسؤولين بوحدة مصيرهم كان يهيمن على كل شعور ، وهكذا فقد ظلت هذه البلاد جميعها تنشد اليوم الذي تصبح فيه وحدة متراصة ضد الاطماع الخارجية ولصالح ازدهار المنطقة .